الفصل الأول

ثلاث صُوَر

العصر - الكاتب - الكتاب

١- صورة العصر:

كتاب «الفَـرَجُ بعد الشّدَّة» ألَّفه القاضى «الـمُـحسِّنُ بن علىٍّ التَّنُوخِىُّ» المعروف بالقاضى التَّنُوخِىِّ. وهذا الكتـاب تقوم مادته الأساسيـة على الأخبار والنوادر التى تُساق فى أسلوب قَصصى، ومع أهمية هذا الجانب، من الفن القَصصى فى التراث العـربى لا يزال قـليلَ الحظ من عناية الـبـاحـثـين، ومـوضعَ اتهـامٍ عند بعض المستشرقين؛ فإن أهمية «الفَرَج بعد الشّدَّة» تتجاوز كونَه من أحسن المصادر وأقربها إلى المنهج العلمى التَّـوثيقىِّ، وإلى الشـمول أيضًـا، إلى أمور أخـرى لا تقل فى درجة الضرورة، لعَلاقته بالسيرة الشـخصية لمؤلفه، ولِدِلالاته المتنوعة التى تتشعب إلى المستويات الاجتماعية، والأنشطة الإنسانية فى عصر مؤلِّفه.

ولقد وُلدَ القاضى التَّنُوخِىُّ سنةَ سبع وعشـرينَ وثلثمائة (٣٢٧ هـ) بالبَصرَة[١]، وتُوُفِّىَ سنةَ أربعٍ وثمـانين وثلثمائة (٣٨٤هـ) ببـغداد، وإذًا فـقد عاش فى صـميم القرن الهـجرىِّ الرابع فى أهم مـواطن الحضـارة العربيـة الإسلاميـة، وفى أنضج مراحلها وأشدها خطرًا.

وهذا القرن الرابعُ الهجرىُّ، له صورتان على قدرٍ من التَّضَادِّ عظيمٍ، فهو عصر التقـدم العلمى والنشاذ التـأليفى، عصـرُ الانفتاح على الحـضارات الأجنبيـة وتميُّز الحضارة العربيـة، عصرُ الترف الزائد والفقر القاتل. عـصرُ المؤامرات والإضرابات والأوبئة، عصرُ السُّلْطة الضائعة والأمْنِ المفتقَد.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان مجلد: ٤/ ١٦٢، وتاريخ بغداد: ٣/ ١٥٦، والنجوم الزاهرة: ٤/ ١٦٨، ومفتاح السعادة: ١/ ٢٤٩. وفى معجم الأدباء (١٧/ ٩٢): أنه ولد سنة ٣٢٩هـ.

فى القرن الرابع الهـجرى ظهرت الثِّمـارُ العظيمةُ التى غـرسَها عصرُ الـرشيد، وعصرُ المأمون من بعده. فى مجـالات الحضارة بكل ما تنطوى عليه من توسع فى العمـران، واعتناء بالفنون والآداب. وتشـجيع للعلمـاء، وتيسـير للحـصول على المعرفـة من منابعها المتـقدمة. تُوُفِّىَ المأمـون سنة ٢١٨هـ، أى قبل ميـلاد القاضى التَّنُوخِىِّ بقرنٍ كـاملٍ يزيد بِضْعَ سنوات، وفى إبَّانِ تلك الفتـرة كانت الخمـائر قد عَملت عملها، وتفـتحت البراعم العظيمة التى شهد عصرُ المـأمون نفسُهُ بشائرَها، وفاض نورها فى عصر الـمُعتصم، واستمر إشعاعُها فى عصور خلفائه لتبلغ الذِّرْوَةَ فى السطوع والإبهار أثناء مراحلَ تُوصَفُ من الناحـية السياسية بأنهـا عصرُ ضعف الخلفاء، واضطراب الأمن، وانتشار الفـساد الإدارى. وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضادُّ للوجه المشرِق بنور الحضارة العربية.

وإذا كنا لا نستطيع أن نستقصىَ جـوانبَ الصورة عـلـى امتداد الأرض الـعربية، مـا بين الـمَشْـرِق والأندلس، فإننا لا نسـتطيع -أيضًـا- أن نخوضَ فى تفـاصيلهـا الدقيقة، إنْ تَكُنْ فى حدود العراق وما حوله؛ لأن الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصـفحات، ونكـتفى بأن نُسـجِّل إشاراتٍ دالةً فى حـدود الفَتـرة التى عاشـها التنوخى، بذكر بـعض أعلام العصـر فى بعض مجالات المعـرفة، فنجد أمـثال أبى الحسن الأشْعَـرىِّ، والإسفَرَايِينى، والقُشَيْـرى، وإمام الحرمين الجُـوَيْنِى، والباقلاَّنى، وأبى بكرٍ الجَصَّاص، وهم من الفقهاء والمتكلمين، ومن علماء اللغة: محمدِ بن دُرَيْد الأزْدِىِّ، وأبى بكرٍ الأنْبَارِىِّ، وأبى الحسن الرُّمَّانىِّ، ومن الـمُتَصوِّفَةَ: «جماعة إخوان الصفاء» التى تُعتـبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية فى تاريخ الفلسفـة الإسلامية. وفى مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسُّرْيانية إلى العربية نكتفى بأن نُقلِّب صفحات كتاب ابن أبى أُصَيْبِعَـة «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» لنكتشف أن العمل فى ميدان الطب ممارسةً وترجمة. وفى مجال الفلسفة، اختُصَّتْ به أسرٌ يتوارثه أفرادُها جيلاً بعد جيل، مثل آل بَخْـتَيْشُوع بن جُورجِس، وآل الطَّيْفُورى وآل حُنَيْن، وحُنَيْن بن إسـحق هـو الذى نـقـل بـعض ما كتب أرسطو بأمـر المأمون، وآل ثابت ابن قُرَّة الحَرَّانى، وفى مجال التأليف كان عصر المشافهة قد ولَّى، وآتى ثمارَه التوثيقية

فى مؤلفات القرنين الثانى والثالث، ثم طُوِّر التأليـفُ كمّاً وكَيْفًا، فظهرت الدراسات المتخصصة، كما ظهرت الدراسات الموسوعِيَّةُ المتعددةُ الاهتمامات، بأحجامها الهائلة، وقد ذكرنا من أسماء الفقهاء واللغويين والحكماء مَن لا يَصعُبُ الوقوفُ على ما كتبوا فى حقول نشاطهم الخاص وعلى المستـوى الموسوعى - فيما يخص المرحلة التى نعنى بها - يكفى أن نذكر «تاريخ الرسل والملوك» لمحـمد بن جَرِيرِ الطَّبَرِىّ (ت ٣١٠هـ)، و«مُرُوجَ الذهب» للمَـسْعودِىّ (ت ٣٤٦هـ) و«الأغـانى» لأبى الفَرَجِ الأصَبـهانىّ (ت ٣٥٦هـ)، و«الفَهْرِسْت» لابن النديِّم (ت ٣٨٥هـ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالبُ المعرفة فى أى مجـال له عَلاقة بالحضارة العربية، منذ أقـدم عصورها، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسـوعية، وسـنرى فى فِقْرَةٍ تاليـةٍ كيف أضـاف القاضى التَّنُوخِىُّ من مؤلفات معـاصريه، فَضْلاً عن سابقيه، ما أغنى به سـماعه من جلسائه وأسـاتذته، مما يدل -فى النهـاية- على ازدهار حركـة التـأليف، فضـلاً عن الإبداع الفنى، والـمُـتَنَبِّى وحده (ت ٣٥٤هـ) يُضىء قرنًا كـاملاً، بل هو مـضىء إلى اليوم وسيبقى كذلك ما بقيت العربية، والنقد الأدبىُّ، ويكفى أن نذكر: ابنَ طَبَاطَبَا العَلَوِىّ صـاحب «عيار الشـعـر» (ت ٣٢٢هـ)، وقُدامةَ بنَ جعفر مؤلـف «نقد الشعر» (ت ٣٣٧هـ) والآمِدىَّ، صاحب كتاب «الـمُوازنة» (ت ٣٧٠هـ)، والقاضى الجُرْجَانِىّ مؤلف «الوَسـاطة» (ت ٣٩٢هـ).. هذه دعائم عصر مـزدهر بألوان الثقافـة المتنوعة، يقف أبو بكر الرَّازىُّ -الطبـيب الفيلسـوف- علامـةً شامـخة على بدايتـه (توفى سنة ٣١١هـ)، ويقف بَدِيعُ الزمانِ الهَـمَذَانىُّ على نهايتـه (توفى سنة ٣٩٨هـ)، وقد يكون فى الانتقال من الطب والفلسـفة فى البداية إلى المقامات الأدبية وصنعـتها اللغوية فى النهاية دلالات مختلفةً على تحرك مركز الثِّقْل فى ثقافة العصر، وتمهيده للطابع الخاص الذى سيميِّز القرن التالى.

لقد ألَّف المستشـرق «آدم مِتْز» كتابه تحت عنوان: «الحضارة الإسـلامية فى القرن الرابع الهـجرى، أو عـصر النهـضة فى الإسـلام»، وهذا الربط أو هذا الوصف له مُـسَـوِّغـاتُه الـتى تجـد أدلتـهـا فى كل أشكـال النشـاط الفكرى والفنـى والعلمى

والعمرانى[1] ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب، كانت وراء اختيـاره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها فى سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الإسلامية، إذ سماه «ظُهْرَ الإسلام» والظُّهْر عَالِيَـةُ النهار، وليس فيما قبله -أو بعده- مـا يدانيه فى تمامه. لقد أرجع الشيخ محـمد الخُضرى رقىَّ العلوم فى عـصر المأمون إلى سبـبين: أن المأمون نفسَـه قد اشتغل بالعلم وأمْـعَنَ فيه، وأن كثـرةً من العلماء مختلفِى الاتجـاهات قد وُجدت فى عصره[2]، ولعله كان ينبغى عليه أن يضيف سببًا ثالثًا هو الحرية الفكرية التى أتيحـت للعلماء، بدرجة سـمحت بعـقد ندوات ومناظرات حتـى فى مجلس الخليفة نـفسه، بغير قـيود إلا أدب المناظرة، بل يذكر الشيخ الخـضرى أنه تَنَاظَرَ فى مجلس المأمون اثنان فى معنى «الإمامة» ينصر أحدُهما «الإماميَّة» والآخرُ «الزَّيْديَّة»، يقول الخضرى: «وهذان المذهبان كلاهما إن صَحّا يذهبان بما فى أيدى آل العباس من الإمامة، ولـم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهـما»[3]. وقد استـمر هذا الاتجاه الصـاعد فى عـصر المعـتصم، وتراجع بعـض الشىء فى عصـر المتوكل (قُـتل سنة ٢٤٧هـ) وتَذَبْذَبَ صعودًا وهبوطًا فيـما بعد، ولكن باب الحوار لم يُغلق على الرغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة، ونستطيع أن نجد فى صميم القرن الرابع محـاورةً مشـهودة بين أبى سعـيد السِّـيرافىِّ النحوى (ت ٣٦٨هـ) ومـتَّى بن يُونُس القُنَّائى، الذى «انتهت إليه رئاسة أهل المنطق فى عصره» حول المنطق اليونانى والنحو العربى[4]، وهى مؤشِّر مهم عن طبـيعة العصر واتجاه التيـارات الفكرية. كما سنجد بعض الخلفاء يقرضـون الشعر، ويُلحِّنون ويُغَنُّون، وكان الوزراء من كبار المـثقفين، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عربًا فإنهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية، كان عَضُدُ الدولة الـبُويْهِىُّ يقول الشعر ويحـاور ندماءه فيه، وكـان القاضى التَّنُوخِى من جلسائه، كمـا كانت له خزائن كتب نادرة، أقام لـها خـازنًا خـاصًا، هـو أحـمـد ابن محـمد مِسْكَوَيْه، الذى اختَـص من الفلسفة بالناحـية الخُلُقية، فـألف «تهذيب

(١) نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٦٧.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٠، وقد عابت عليه بعض الطوائف والعامة ذلك.

(٤) أوردها أبو حيان التوحيدى فى كتابيه: المقابسات ص ١٢١، والإمتاع والمؤانسة: ١/ ١٠٤ وما بعدها.

الأخلاق» كما ألف كتاب «تجارب الأمم» جرى فيه على نَسَق خاص، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرِّب[1].

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجرى، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة فى ضعفها وضياعها بين المتغلبين من قادة الترك، والديلم، والمتسللين إلى مواقع التأثير فى قصر الخلافة من الجوارى والقَهْرَمَانات والخصيان، والطامحين إلى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية، كالقَرَامِطة، والدَّيْلَم، والطُّولُونِيّة، والحَمْدانية، وغيرهم ممن عانت منهم دولة الخلافة العباسية أشد العناء.

إن كتاب «الفَرَجُ بعد الشدَّة» سيقدم لنا من خلال أخباره القصصية صورة ذلك العصر السياسية، وهى لا تزيد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة، وإخراب المدن وكَبْس السجون وقطع الطريق على القوافل، تلك التى تحمل رسائل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، لقد خُلِعَ الخليفة القاهر، وسُمِلَ[2] (سنة ٣٢٢هـ). وأخذ الخليفة الرَّاضى مكانه، وقد وُلِدَ القاضى التنوخى بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضى، وهذا يعنى أنه عاصر خلافة الراضى، والمتَّقى، والمُسْتَكْفى، والمُطيع، والطائع -الذى خُلِع سنة ٣٨١هـ - وأعقبه القادر، الذى ظل خليفة لأكثر من واحد وأربعين عامًا، وقد مات التنوخى بعد ثلاث سنوات فى خلافته، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم، وهم بين مقتول ومعزول ومن لا يدرى من أمره شيئًا، فضلاً عن أمر المسلمين. وقد كان منصب الوزارة جزءًا من هذه الفوضى وصدى لها، فكان لمن يتغلب على خصمه، أو يستولى على إقليم، أو يُجزِلُ الرشوة للخليفة. ويكفى أن نقلب صفحات الجزء الثامن من كتاب ابن الأثير «الكامل فى التاريخ»، الذى يرصد الحوادث المستجدة عامًا بعد عام، لنرى الصورة القلقة، بل المفزعة، للحياة السياسية والإدارية، وللنظام المالى فى ذلك العصر الذى يزهو بالعلماء والأدباء. سنكتفى بمجرد إشارة إلى أسباب مبايعة المقتدر بالخلافة بعد وفاة

---

(١) ظهر الإسلام: ١/ ٢٣٢.

(٢) السمل: إفقاد العين إبصارها بتقريب مسمار أو حديدة محماة.

المكتفى. لقد فكر الوزير -وهو العباس بن الحسن- فيمن يصلح للخلافة، فطلب مشورة أصحابه، وكان عبد الله بن المعتز أكثر المرشحين شهرة، ولكن مستشار الوزير رفضه، وقال معللاً: «فَلْيَتَّقِ الله الوزيرُ، ولا يُنَصِّبُ إلاَّ مَنْ قد عَرَفَه، واطلعَ على جميع أحواله، ولا يُنَصِّبُ بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم، ولا طماعًا فيشْرَهُ فى أموالهم، فيصادرهم، ويأخذ أموالهم وأملاكهم، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام، ويرجو الثواب فيما يفعله، ولا يُول من عرف نعمة هذا، وبستان هذا، وضيعة هذا وفرس هذا، ومن قد لقى الناس ولقوه، وعاملهم وعاملوه، ويتخيل، ويحسب حساب نعم الناس، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم». فقال الوزير: صَدَقْتَ ونَصَحْتَ، فبمن تشير؟ قال: أصْلحُ الموجود جعفر بن المعتضد. قال: وَيْحُكَ، هو صبى!! قال ابنُ الفرات (المستشار): إلا أنه ابن المعتضد، ولِمَ نأتِ برجل كاملٍ يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا؟

هكذا بويع للمقتدر بالخلافة، لأنه لا يعرف شيئًا، ولا يستطيع أن يباشر الأمور بنفسه ومن ثم سيظل أسير إرادة وزرائه، فلا يُستغرب أن تتسلط أم الخليفة، وقَهْرَمَانَةُ قصره، وقد صار لهما الحكم فى كل شئون الدولة، وصارت أعظم المناصب تُنال بالرشوة، ويدل قلق منصب «الوزارة» على هذا الاضطراب العام، فقد شغله العباس بن الحسن، ثم ابن الفرات (إبانَّ فتنة ابن المعتز) ثم ابنُ خاقان، ثم على بن عيسى، ثم ابن الفرات مرة ثانية، ثم حامد بن العباس، ثم عبد الله ابن محمد (بن خاقان الوزير الأسبق) ثم أبو العباس الخصيبى ثم ابن مقلة، ثم سليمان بن الحسن، ثم أبو القاسم الكَلْوَذَانى، ثم الحسين بن القاسم، ثم الفضل ابن حَجَر، فهؤلاء اثنا عشر وزيرًا فى أربعة وعشرين عامًا. تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة، ولم ينلها أكثرهم عن جدارة، بل بما بذل من رشوة لا بد أن يستردها مضاعفة، ومهما يكن من أمر فقد قُتل المقتدرُ بعد حكم طويل، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقى من القادة والحُجَّاب، وهنا ظهرت مسوغات جديدة لاختيار الخليفة، أجملها ابن الأثير فى عبارات قاطعة قال: «لما قُتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس (مؤنس المظفر الخادم من أصحاب النفوذ

طوال عصر المقتدر، وقد شارك فى تدبير قتله) وقال: الرأى أن ينصب ولده أبو العباس أحمد فى الخلافة، فإنه تربيتى، وهو صبى عاقل. وفيه دين وكرم، ووفاء بما يقول، فإذا جلس فى الخلافة سمحت نفس جدته -والدة المقتدر- وإخوته، وغلمان أبيه ببذل الأموال، ولم يَنْتَطِحْ فى قتل المقتدر عَنْزَان (ما دام ابنه قد أخذ مكانه)، فاعترض عليه أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النُّوبَخْتى، وقال: بعد الكد والتعب، استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال؟! والله لا نرضى إلا برجل كامل، يدبر نفسه، ويُدَبِّرُنا».

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأجل المناصب، وافترقت بين قطبين متباعدين: لماذا نأتى برجل كامل يباشر الأمور بنفسه، غير محتاج إلينا؟-: والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه، ويدبرنا، لقد اختير «القاهر» على هذا الأساس الأخير. ولكنه قُتل بعد عام ونصف عام لا تزيد، لأنه لم يكن رجل المنصب، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين، بل كان رجل المصالح، ومحاور النفوذ، واختلاف الظروف، لا غير.

سيكون «الفَرَجُ بعد الشِّدَة» شاهد صدق على عصر المؤامرات، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوة فى الدولة الإسلامية: الإنسان.

٢- صورة شخصية:

ليس من شك فى أن كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» باستطاعته أن منحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العملية، وملامحه النفسية، ترتيبًا على أن الكاتب -أى كاتب- يُفيض جانبًا من نفسه فيما يكتب، فضلاً عن دلالة الاختيار للموضوع الذى يُؤْثِرُه، وبخاصة حين يكون الموضوع إنسانياً، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره، ومع هذا فإن كتب التراجم قد عُنِيَتْ بإيراد بعض التفاصيل التى سيكون باستطاعتها أن تَجْلُو أمامنا صورة هذا القاضى الأديب، وأسباب اختياره لموضوع الفَرَج بعد الشدة دون غيره، وللتَّنُوخى غير هذا الكتاب ديوان شعر وُصِفَ

بأنه كبير، يفوق فى حجمه ديوان والده، وكتاب «نُشوارُ المحاضرة» وقد طبع مؤخرًا فى أجزاء ثمانية[1]، وكتاب «المُستجاد من فَعَلات الأجواد»، ولكن يبقى الكتاب الذى نحن بصدده أكثر إقناعًا لدى كُتّاب التراجم. وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبى -صاحب يتيمة الدهر- وقد عاصر التَّنُوخى، إذ عاش الثعالبى بين عامى (٣٥٠ و٤٢٩هـ)، وفيها قال مفتتحًا ترجمته: «هلال ذلك القمر، وغصن هاتيك الشجر، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله، والفرع المثيل لأصله، والنائب عنه فى حياته، والقائم مقامه بعد وفاته، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج (من الوافر):

إذا ذُكِرَ القُضاة وهم شُيُوخٌ ... تَخيَّرْتُ الشبابَ على الشيوخِ
وَمَنْ لم يرْضَ لم أصْفَعْهُ إلاَّ ... بحضرةِ سيدى القاضِى التَّنوخِى

وله كتاب «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة»، وناهيك بحسنه، وإمتاع فنه، وما جرى من الفأل بيمنه، لا جَرَمَ أنه أسْيَرُ من الأمثال، وأسرَى من الخيال»[2].

وقد ترددت هذه العبارات فيما كتب عن التنوخى بعد الثعالبى، وهى تشير بإلحاح إلى شخصية والده، وكيف كان الولد صورة أبيه أو مستفيدًا من منزلته، وارثًا لمناصبه فى الحقيقة. أما أوفى ترجمة له فنجدها عند ياقوتَ الحَمَوِىّ[3]، وقد أثبت اسمه، فهو: المحسِّن -بكسر السين- ابن على، بن محمد، ابن داود، بن الفَهْم التَّنُوخى، وكنيته أبو على، وقد كان علىٌّ هذا قاضيًا -فيما بعد- وكان يُكْنَى أبا القاسم، وهو نفس اسم جده -والد المحسِّن- وكنيته، وقد كان قاضيًا أيضا، وهناك اختلاف محدود فى سلسلة نسبه، فجاء فى بعض المصادر «ابن أبى الفهم» بدلاً من «ابن الفهم»[4]، كما أضاف ابن العماد الحنبلى تفصيلاً آخر، فداود بن إبراهيم بن تميم[5] وعنه أخذ محسن

---

(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، حققه ونشره عبود الشالجى سنة ١٩٧١، والنشوار: هو ما يظهر من كلام حسن، وهناك مصادر قديمة وحديثة سمته «نشوان المحاضرة» والكتاب أقل تماسكًا -من الوجهة الفنية- من الفرج بعد الشدَّة. أما «المستجاد» فقد حققه محمد كرد على ونشره عام ١٩٧٠.

(٢) يتيمة الدهر: ٢/ ٣٤٦.

(٣) معجم الأدباء: ١٧/ ٩٢.

(٤) تاريخ بغداد ص ١٥٥ -والنجوم الزاهرة: ٤/ ١٦٨.

(٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: ٣/ ١١٢.

الأمين -فيما نظن- وأضاف بعدها: القحطانى التنوخى، وربما كان العكس، هو الصحيح[1].

ومهما يكن من أمر، فإنه بشخصية هذا الوالد -«القاضى أبو القاسم على التنوخى»- يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحد مكانته الاجتماعية ووِجْهَتُهُ فى التأليف، فقد كان من أعلام عصره، مرموقَ المنزلة، وقد رُوعِيَتْ هذه المنزلة فى اختيار ابنه المحسِّن لمنصب القضاء وهو لا يزال فى شَرْخِ شبابه، بل أُسْبِغَتْ عليه حمايةُ الوزير أبى محمد المُهَلَّبِىِّ - وزير مُعِزِّ الدولة البُوَيْهِىِّ - الذى يصفه ابنُ الأثير بأنه «كان كريمًا فاضلاً، ذا عقل ومروءة»[2].

وهذا المشهد الذى اختير فيه المحسن لتولى القضاء جدير بأن يروى، لما له من معانى التواضع والذكاء والإفادة من الفرصة المتاحة. يقول:

«نزل الوزير أبو محمد المهلبى السوس (بلدة بخوزستان) فقصدته للسلام عليه وتجديد العهد بخدمته، فقال لى: بلغنى أنك شهدت عند ابن سيار قاضى الأهواز؟ قلت: نعم. قال: ومن ابن سيار حتى تشهد عنده، وأنت ولدى، وابن أبى القاسم التنوخى أستاذ ابن سيار؟ قلت: ألا إن فى الشهادة عنده مع الحداثة جمالاً - وكانت سنى يومئذ عشرين سنة - قال: وجب أن تجىء إلى الحضرة لأتقدم إلى أبى السائب قاضى القضاة بتقليدك عملاً تقبل أنت فيه شهودًا. قلت: ما فات ذاك إذا أنعم سيدنا الوزير به، وسبيلى إليه الآن مع قبول الشهادة أقرب. فضحك وقال لمن كان بين يديه: انظروا إلى ذكائه كيف اغتنمها؟ ثم قال لى: اخرج معى إلى بغداد. فقبلت يده ودعوت له، وسار من السوس إلى بغداد، ووردت إلى بغداد فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة[3] فتقدم إلى أبى السائب فى أمرى، بما دعاه إلى أن قلدنى عملاً بسقى الفرات، وكنت ألازم الوزير

---

(١) أعيان الشيعة: ٤٢/ ٩٤.

(٢) الكامل فى التاريخ: ٨/ ٥٤٧.

(٣) لعل هذا سبب نص ياقوت أن المحسن ولد سنة ٣٢٩هـ مخالفًا جميع من ترجموا له، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه ولد سنة ٣٢٧هـ.

أبا محمد، وأحضر طعـامه ومجالس أنسه[1]، وهكذا صار المحسن قاضيًا وهـو لا يكاد يجاوز العـشرين عامًا، وصـار محسوبًا من خـاصة الوزير المهلبى، ولم يقف الأمر عند حـضور طعامه ومجـالس أنسه، فقد ذكر حـادثة تدل على عمق المحبة التـى يكنها الوزير له، والحماية التى يحـرص على بسطها عليه، فـقد كان الوزير فى مجلس عـام ذات يوم، وكان المحسن عنده، ثم جاء الحـاجب يستأذن لدخول أبى السائب -قـاضى القضاة- وهنا استـدنى الوزير المحسن، وتظاهر بأنه يخاطبـه فى أمر خـاص على جانب من السريـة، وقال للمحـسن همسًـا -بينما قـاضى القـضـاة واقف بالبـاب يرى المشـهـد ولا يسـمع وينـتظر إذن الوزير له بالجلوس: «ليس بيننا سـر، وإنما أردت أن يدخل أبو السائب فيـراك تسارنى فى مثل هذا المجلس الحـافل فلا يشك أنك معى فى أمر من أمور الـدولة، فيرهبك ويحشمك ويتوفر عليك ويكرمك فـإنه لا يجىء إلا بالرهبة، وهو يبغضك بزيادة عداوة كانت لأبيك، ولا يشتهى أن يكون له خلف مثلك».

ويسجـل المحسن لنا صـدى هذه العلاقـة الخاصة بـينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قـاضى القضـاة تجاهه، فـيقـول: «وجـئت من غد إلى أبى السـائب فكاد يحملنى على رأسه، وأخذ يجاذبنى بضروب من المحادثة والمباسطة وكان ذلك دهرًا طويلاً».

وهناك جانـب آخر من شخـصيـة هذا الأب القاضى، وأشار إليـه ابن خلكان صراحة، وأغفله المحسن، لما يحرص عليه الابن عادة من إجلال سيرة أبيه، وتجنب ذكر ما يمـس نزاهته ووقاره، فقد وصف هـذا الأب بأنه كان إلى فقهـه وقضائه: أديبًا وشاعرًا ظريفًا، وأنه كان من ندمـاء الوزير المهلبى وسماره وتعيين المحسن فى منصب القضاء وهـو لا يزال صغير السن، وإرهاب قاضى القـضاة من أجله دليل على ما كـان بين الوزير والأب، وعبارة ابن خلكان حاسـمة بالنسبة لتـقرير بعض الصـفات، يقـول: «كان الوزير المهلبـى وغيـره من رؤساء العـراق يميلون إليـه، ويتعصبـون له، ويعدونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، وكان فى جـملة الفقهاء

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٩٥، ٩٦، ٩٧- وعن مولده راجع ص ٩٢.

والقضاة الذين ينادمـون الوزير المهلبى، ويجتمعون عنده فى الأسـبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة»[١].

سنجد «إطراح الحشمة» و «التبسط فـى القصف والخلاعة» فى مجالس الرؤساء ماثلة فى حـياة المحسن أيضًا، كـما سنرى، مع فقـهه وقضائه وجـده، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخـاطر مما اشتهر به ابنه على، وكان قاضـيًا أيضًا، يقول عنه ابن شاكـر الكتبى: «وكـان ظريفًا نبـيلاً جيـد النادرة، اجتاز يـومًا فى بعض الدروب، فسمع امرأة تقول لأخرى: كم عمـر بنتك يا أختى؟ فقالت: رزقتها يوم صفع القاضى وضـرب بالسياط، فرفع رأسـه إليها وقال: يا بظراء، صـار صفعى تاريخك، ما وجدت تاريخًا غيره»؟

«. . . وكان يومًا نـائمًا، فاجتاز واحـد غَثٌّ وأزعجه مما يصيح: شِـرَاكُ النِّعال شِرَاكَ النِّـعال، فقـال لغلامـه: اجمع كل نَعْل فى البـيت وأعطها لـهذا يصلحـها ويشتغـل بها. ثم نام. وأصلحها الإسكافى واشـتغل بها إلى آخر النهـار، ومضى لشأنه. فلما كان فى اليوم الثانى فعل كذلك ولم يدعه ينام، فقال للغلام: أدخله، فأدخله فقـال له: يا ماصَّ بَظْرَ أمِّه، أمس أصلحْتَ كل نعل عندنا، والـيوم تصيح على بابنا، هل بلغك أننا نتـصافع بالنعال ونقطعهـا؟ قفاه، قفاه. يـا سيدى أتوب ولا أعود أدخل إلى هذا الدرب أبدًا»[٢] ومع هذا الظُرف، بل هذه «الخـلاعة» فى استخدام بعض الألفاظ -التى تجنبنا ذكر ما زاد فحشه منها- لا يتردد ابن شاكر فى وصفه بأنه كان شيعياً مُعتزِلياً، وكان ساكنًا وقورًا».

هذان شعاعـان مُسَلَّطان على شخصـية صاحبنا المحسِّن التَّـنُوخى، أحدهما من والده أبى القـاسم على التنوخى، والآخـر من ابنه أبى القـاسم على بن المحـسِّن التَّنُوخِى، ولعلهما أن يكشفا جانبًا لم يَنُصَّ عليه مؤرخو حياة المحسِّن، وهو ظرفه وتسامحه، بل حسه الفنى الذى يكاد يخرج به عن تزمت الفقيه وجد القاضى.

---

(١) وفيات الأعيان الجزء الأول.
(٢) فوات الوفيات: ٣/ ٦٠-٦٢.

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه، كما رأينا من حدب الوزير المهلبى على المحسن، مع أن هذا الوالد -نديم المهلبى- كان قد مات منذ عام ٣٤٢هـ، أى قبل أن يتولى ابنه القضاء، بسبع سنين، فهناك جانب «الوراثة» التى يمكن أن نلمح آثارها فى مزاج الابن وتنشئته وميوله، وحرصه على أن يسير على النمط الذى سارت عليه حياة أبيه، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيما نحن بصدده، فقد شغل هذا الأب منصب القاضى فى أكثر من مكان.

١- رامهُرمُز: وهى مدينة من نواحى خُوزِستان، نستنتج هذا من قول المحسِّن فى صدر الخبر: «أخبرنى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى، خليفة أبى على القضاء بها...»[1].

٢- الأهواز: نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخزاعى - صاحب ابن دُرَيْد - بقوله فى سياق أسانيده: «وكان شيخًا من أهل الأدب والحديث، فقد استوطن الأهواز سنين، وكان ملازمًا لأبى رحمه الله، يتفقده ويبره..».

٣- الكَرْخ: وهى من ضواحى بغداد وأكثر أهلها من الشيعة. نستنتج ذلك من قوله فى إسناد خبر آخر: «وحدثنى أبى رضى الله عنه قال: لما كنت بالكرخ، أتقلد القضاء بها، وبالمرج وأعمالها، كان بوابى رجل من أهل الكرخ».

٤- البصرة: وقد نص عليه ابن خَلِّكان، ونقله عنه أحمد أمين[2] وليس من شك فى أن هذا التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذى لا ينقطع لذاكرة الصبى بالحوادث المتجددة، والنماذج البشرية المختلفة، ومثيرًا لتداعيات التاريخ القريب والبعيد، ولن نعجب إذًا، حين نجد مادة كتابه مستمدة من تاريخ العراق وفارس، فى نسبتها الغالبة، ومن أخبار مدنهما وحكايات شعبيهما.

---

(١) الفَرَجُ بعد الشدة (القسم الثانى) الفصل الخامس، القصة رقم ٥.

(٢) ظهر الإسلام: ١/ ٢٤٠.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان الأب مصدرًا لبعض الأخبار التى رواها ابنه المحسِّن، مبتدئًا بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث، أو ناقلاً رواية عن غيره، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره فى البصرة بخاصة، وفيها سمع المحسِّن من أبى بكر الصولى، وهو لم يزل حَدَثًا[1].

لقد مات القاضى أبو القاسم على التَّنُوخِىُّ، وولده المحسن فى الخامسة عَشْرَةَ من عمره، وإذًا فقد قضى فى رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافى، وأفاد إفادةً مباشرة من «النَّدْوَة» الثقافية التى كان يؤمها مثقَّفو البصرة فى بيت هذا الأب المحَدِّث الشاعر الأديب، ولقد كانت البصرة، إلى عصر المحسِّن، عاصمةً ثقافية هامة، تتوارث الرواية عن بوادى نجد والحجاز مما يليها، وتعتبر مستقراً لنوادر الأعراب ولهجاتهم، مما أغنى ثقافة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح، شامخة الأثر، فى الشعر واللغة والنحو، وغير ذلك من مكونات الثقافة العربية التراثية، ولم تكن النوادر والأخبار كل ما تعلمه وسمعه المحَسِّنُ فى مجلس أبيه، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديثَ النبوىَّ ورواه، ويحدد الخطيبُ البَغْدَادِىُّ بداية ذلك بسنةِ ثلاث وثلاثين وثلثمائة، أى أنه سمع الحديث وهو فى نحو السابعة من عمره، وقد سمع من واهب بن يحيى المازنى، وأبى العباس الأثْرَم، ومحمد بن يحيى الصُّولى والحسن بن محمد بن عثمان النَّسوى، وأبى بكر بن دَاسة، وأحمد بن عُبَيْد الصَّفَّار وطبقتهم، ونزل بغداد وأقام بها وحدَّثَ إلى حين وفاته، وكان سماعه صحيحًا[3]. ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادى[2]. أما ابن العماد الحنبلى فإن عبارته تُشعر بأنه استمر فى سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة إلى بغداد، كما أنه يخالف فى أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلثمائة[4]. ولعل هذا أقرب إلى القبول، إذ كان المحسِّن فى التاسعة أو العاشرة من عمره.

---

(١) محمد بن يحيى بن عبد الله، أبو بكر الصولى، توفى سنة ٣٣٥هـ، وقد ذكر القاضى التَّنوخى بأنه سمع منه فى البصرة فى هذه السنة، انظر مثلاً: (القسم الثانى) الفصل الرابع، القصة رقم ١١ بعنوان: صفاء البديهة.

(٢) تاريخ بغداد ص ١٥٥، ١٥٦.

(٣) وفيات الأعيان: ٤/ ١٦٠.

(٤) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: ٣/ ١١٢.

لقد تقلب المحسِّن فى وظائف مختلفة وشغل منصب القاضى فى أكثر من مكان، ومما يؤسف له حقّاً أن المصادر التاريخية القريبة من عصره لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمنيّاً، مع أهمية ذلك فى تحديد أطوار خبراته العملية، وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التأليفى، ويمكن اعتبار «نُشْوار المحاضرة» مصدراً أساسيّاً للمعرفة بحياته، من حيث قيام مادته على تدوين ما يدور فى المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تُدَوَّنْ فى الكتب، وقد بذل محقق «النُّشوار»(1) -عبود الشالجى- جهدًا طيبًا فى تجميع ما يتصل بحياة القاضى التَّنُوخِى مباشرة، وترتيبه فى سياق زمنى متصل، أو شبه متصل. لقد استقر به الأمر فى بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بسقْى الفرات، سنة ٣٤٩هـ، وأصبح عضواً فى مجلس الوزير المهلَّبى. ويستنتج المحقق أن المحسن بقى فى بغداد حتى سنة ٣٥٥هـ ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت إليه أيضًا فى تلك الفترة، ثم غاب عن بغداد ما بين عامى (٣٥٥ و٣٦٠هـ). ثم عاد إليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التى احتفظ بها برغم هذا الانقطاع. والدلائل تشير إلى أنه كان يتولى قضاء واسط سنة ٣٦٣هـ، وبعدها لجأ التَّنُوخِىّ إلى البطيحة، هاربًا من ابن بَقِيَّة، وزير عز الدولة بُخْتِيَار، وبقى بعيدًا إلى أن وثق صلته بعضُدِ الدولة -ابن عم عِزِّ الدولة وأقوى شخصية فى عصره- وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدرًا من الاهتمام.

كان عَضُدُ الدولة البُوَيْهِى (توفى سنة ٣٧٢هـ) أديبًا وشاعراً، وحاكمًا حازمًا، وكان بلاطه يحوى نُخبة من الشعراء والأدباء معدودة، وقد قدَّم ياقوت وصفًا لبعض مجالس السمر فى حضرة عضد الدولة، دل على تنوع ثقافة التَّنُوخِى فى الشعر والرواية والموسيقى، مما سنجد عليه أكثر من دليل فى تحليل مادة كتابه، وسنقتطف مما يدل على مزاج القاضى ومنزلته وتطور علاقته. فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب، ولكنه كان لا يشرب، وكان يعد قصائد يمدح بها عضد الدولة فى بعض مناسباته الخاصة، كما كان يراعلى منزلة هذا

---

(1) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١/ ٢٠-٢٤.

الملك الفارسى إذا ما سمع شيئًا من شعره، حدث أن ذكر أحدهم بيتًا من نظم عضد الدولة وهو:

وَشُرْبُ الكأسِ من صَهْبَاءَ صِرْفٍ يَفِيضُ على الشُّروبِ يدَ النُّضارِ

يقول القاضى التنوخى: «فقطعت المذاكرة، وأقبلتُ أعظم البيت، وأفخِّم أمره وأفرط فى استحسانه، والاعتراف بأننى لا أحفظ ما يقاربه فى الحسن والجودة فأذاكر به»(1).

هذا إذًا.. القاضى التنوخى رجل الحاشية وجليس الملوك، وليس الفقيه أو القاضى، أو الناقد الأدبى، ويتأكد هذا حين نراه يُقَبِّلُ الأرضَ شُكرًا حين يُنعم عليه عَضُدُ الدولة بشىء جزيل، يستمر هذا النمط من الحياة إلى أن تحدثَ الوَحْشَة، ثم الفُرْقَةُ والعقوبة. وقد جرى ذلك على مرحلتين، فكانت السَّخْطَةُ الأولى بسبب تسرب خبر أُلْقِى يُشير إلى أن الملك بسبيله إلى القبض على الصاحب بن عَبَّاد، وقد أسْنَدَ هذا التسريب إلى القاضى التَّنُوخى، فجفاه الملك خَمسةً وأربعين يومًا، يشاركه المجلس دون أن يبادله كلمةً أو يرفعَ إليه وجهًا، والقاضى لا يجسر على الانقطاع أو مفاتحة الملك فيما نُسِبَ إليه، إلى أن يدافعَ عن نفسه، ويعترفَ على نفسه بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عليه.

وكان القاضى التَّنُوخى إبَّانَ قُربه من عضد الدولة قد توسط عَقْد مُصاهرة بين الوزير الفارسىِّ، المتَغَلِّب، والخليفة الطائع، إذ تزوج الخليفةُ من ابنة الوزير، ولكنه مع حبه لها وشَغَفه بها، لم يحاول أن يُنجبَ منها تَخَوُّفًا من تزايد المطامع الفارسية، وقد فَطَنَ عَضُدُ الدولة إلى معنى هذا الامتناع عن معاشرة ابنته، فَحَدَّث القاضى التَّنُوخِى فى الأمر، وحَمَّلَهُ رسالةً إلى الخليفة على لسان والدة الصَّبِيَّة بأنها مُسْتَزِيَدةٌ لإقبال مولانا -الخليفة- عليها وإدنائه إياها. «فقد كُنْتُ وسيطَ هذه المصاهرة. فقلت: السمعَ والطاعةَ، وعدتُ إلى دارى لألبس ثياب دار الخلافة، فاتفق أن زَلِقَتْ وَوَثِئَتْ رِجْلى»!! والحق أن القاضى تَمَارَضَ، وتصنع حادثةَ

---

(1) معجم الأدباء: ١٧/ ١٠١.

الانزلاق ورضٍّ عِظام رجْله، لعله تخوَّف من الدخـول فى مرحلة خصومـة قادمة بين الخليفة المستضعَف ووزيره القوى. والمهمة فى ذاتها غير مشجعة، وهى تختلف كثيرًا عن الوَسَاطة فى عقد مصاهـرة، وقد كُشفَ أمر التمارض، فصدر أمر الملك للقاضى أن يلزم بيته، وعُزِلَ عَن جميع مناصـبه، وصُودِرت أمواله، واستمر ذلك إلى وفاة عضد الدولة[1].

هكذا استـحكمت الشِّدَّة، التى انتـهت إلى «فَرَج» طال انتظاره، وكـان تأليف كتـاب «الفَرَجُ بعد الشِّـدَّة»، بمثابة نوع من العـزاء أو طلب السُّلْوَان وتبديد قـسوة الانتظار. وهذا يعنـى أن القاضى الـتَّنُوخِى ألف كـتابه وقـد جـاوز الأربعـينَ من العمر، وأصبح صـاحب تجربة، ابْتَلَى الحياة وابتَلَتْهُ الحيـاة، وسنجده فى كتابه هذا يتمتع بقَدْرٍ عظيم من التسامح ورَحَابَةِ الصدر، ينمّ على حِكْمَةٍ وبُعْدِ نظر.

خـرجنـا لنستـسـقى بيُـمْـنِ دعـائه — وقد كاد هُدْبِ الغيْمِ أن يبلغَ الأرْضَا
فلمـا ابْتَـدا يدعـو تَقَـشَّعَت السَّـمَـا — فـمـا تَـمَّ إلاَّ والغـمـام قـد انـقَـضَّـا

وقال متغزلاً:

أقــولُ لـهــا والحىُّ قـــد فَطِنُـوا بنا — ومــــا لى علـى أيدى المَنـونِ بَرَاحُ:
لما سـاءَنى أن وشَّـحَـتْنِى سـيـوفُـهُم — وأنَّكِ لـى دونَ الوِشَـــاحِ وِشَـــاحُ

يقول الثعالبى فى تقـديمه للبيتين الأخيرين: «وأنشـدنى غيره له وأنا مرتاب له لفـرط جودته وارتفـاعه عن طبـقتـه»[2] وهى عبـارة دالة على منزلة التَّنُوخى فى الشعر، أما موقعه، أو موقع كتابه بين فنون النثر فى التراث العربى، فهو ما يحتاج إلى عناية وتفصيل.

٣- صورة كتاب:

قسَّمَ القاضى التَّنُوخِى مادة كتابه فى أربعة عشر بابًا أشار إليها فى مقدمته:

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ١١٣، ١١٤.

(٢) يتيمة الدهر: ٢/ ٣٤٧.

الباب الأول: ما أنبأ الله تعالى به فى القرآن، من ذكر الفَرَج، بعد البؤس والامتحان.

الباب الثانى: ما جاء فى الآثار، من ذكر الفَرَج بعد اللأواء، وما يُتوصل به إلى كشف نازلِ الشِّدَّة والبلاء.

الباب الثالث: مَن بُشِّرَ بفَرَج من نُطْقِ فَالٍ، ونجا من محنةٍ بقَولِ أو دعاءٍ أو ابتهال.

الباب الرابع: مَن استعطف غضب السلطان بصادق لفظ، أو استوقف مكروهه بموقظ بيان أو وعظ.

الباب الخامس: مَن خرج من حبس أو أسر أو اعتقال، إلى سراح وسلامة وصلاح حال.

الباب السادس: مَن فارق شِدَّة إلى رخاء، بعد بُشْرَى منام، لم يَشُبْ صِدْقَ تأويله كذبُ الأحلام.

الباب السابع: مَن استُنقِذَ من كَرْبٍ وضيق خناق، بإحدى حَالَتى عَمْدٍ أو اتِّفاق.

الباب الثامن: مَن أشفى على أن يُقْتل، فكان الخلاص إليه من القتل أعجل.

الباب التاسع: مَن شارف الموت بحيوانٍ مُهْلِكٍ رآه، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه، ونجَّاه.

الباب العاشر: مَن اشتد بلاؤه بمرض ناله، فعافاه الله تعالى بأيسر سبب، وأقاله.

الباب الحادى عشر: مَن امتُحِنَ من لصوص بسرق أو قطع، فعُوِّض من الارتجاع والخُلْف بأجمل صنع.

الباب الثانى عشر: مَن ألجأه خوف إلى هرب واستتار، فأُبْدِلَ بأمْنٍ، ومُستجدِّ نِعمة، ومسار.

الباب الثالث عشر: مَن نالته شدة فى هواه، فكشفها الله تعالى عنه، وملَّكَهُ مَنْ يَهواه.

الباب الرابع عشر: ما اختير من مُلَحِ الأشعار فى أكثر معانى ما تقدَّم من الأمثال والأخبار.

بعد قراءة عناوين الأبواب، ونظام تتابعها، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد، ومن ثَمَّ فإنها لا تتكامل، بقدر ما يمكن أن تتداخل. إن الأخبار والقصص والحكايات التى اختيرت لتأخذ مكانها فى هذا الكتاب، تم انتقاؤها على أساسٍ من الشكل الفنى: الشِّدَّة -الفَرَج، وهو أساس سليم، يُعَبَّرُ عنه بلغة الفن الأدبى بكلمتى: الأزمة -الحل. ومن هنا كان ينبغى أن يكون أساس التقسيم فنياً، يعتمد على نوع الأزمة، أو أسلوب الحل، ولكن يبدو أن جانب «الموعظة» فى هذه الأخبار القصصية كان الأكثر وضوحًا فى ذهن المؤلف للرابطة النفسية النابعة من التجربة الخاصة، ومن جانب آخر فإننا لا نستطيع أن نُحَمِّلَ التَّنُوخِيَّ صفة التقصير، ولم تكن أمامه تجربة رائدة، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون، وسنرى أنه حتى فى إطار هذا التقسيم العام، فى داخل كل باب، كان التَّدَاعِى يقوم بالدور الأساسى فى تتابع الأخبار والقصص. قبل أى اعتبار آخر.

إن البابين: الأول والثانى استحقا الصدارة لمادتهما ذات الصلة بالقرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وقصص الأنبياء السابقين. وقد تسللت إلى بعض هذه القصص أساطيرُ إسرائيليةٌ وغير ذلك دون أن تفقد حقها فى الصدارة لمغزاها الدينى فى نظر المؤلف، وبصفة عامة فإن فِقْرات هذين البابين -وإن دخلت تحت عنوان الكتاب- فإنها خارج طابعه العام، فأكثرها أدعية وأذكار تقال عند الشدائد، أثِرَتْ عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء وأولئك، وكانت سببًا فى تبديد هذه الشدائد، وليس من اليسير اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصًا أو أخبارًا حتى وإن ذُكرت المناسبةُ فى عبارات موجزة، لا تُشكِّلُ منها عملاً فنياً تصويرياً، وهو الطابع العام لهذا الكتاب، ومن جانب آخر فإن وسائل الفَرَج أو ظروفَه فى هذه المأثورات ذاتِ الطابَعِ الدينى كانت تسلكها فى أبواب الكتاب الأخرى،

ولم يكن من داع لاستقلالها سوى هذه «القدسية» التى أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار.

لقد رُوعى فى توزيع الأبواب سببُ الشِّدَّة غالبًا، كما رُوعى أسلوبُ الخلاص منها فى أبواب أخرى، وأهمل هذان الاعتباران اكتفاء بمطلق الشِّدَّة أحيانًا، سبب الأزمة أو الشِّدَّة، رُوعى فى الأبواب: الخامس والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر فى حين أن أسلوب الخلاص من الشِّدَّة قد رُوعى فى اختيار مادة الأبواب: الثالث والسادس، فإن التبشير بالفَرَج من نطق فأل، أو بعد منام، ليس مما يدخل فى علاقة السبب والمسبب. وهو ما رُوعى فى أبواب أخرى هى: الرابع والسابع. وفى حين يُراعَى مطلق الشِّدَّة فى الباب الثانى عشر، وهو ما يَعْنِى أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة، فإن الباب الأخير، بما اقتبس من أشعار يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب. لعل هذا التداخل كان من أسباب إيثارنا لتقسيم آخر، يقوم على رعاية موضوع القصة أو الخبر.

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المنهجية بين أبواب الكتاب فإننا لا نستطيع أن نوجه لومًا إلى القاضى التَّنُوخِىّ، لقد كان « الاستطراد والتذكر بالمناسبة» أسلوبًا مقبولاً لتأليف الكتب، وبخاصة تلك التى تعتمد على الرواية والرواة، فهذا التعويل الشديد على المشافهة والسماع يجعل المادةَ الكلاميةَ فى حالة من الاستقلال والتشابك فى الوقت نفسه: الاستقلال بذاتها دون وقوف عند «موضع الشاهد» أو «بيت القصيد» أو «العبرة»، لأن الراوى لا بد أن يؤدى الخبر كما انتهى إليه بكل ملابساته، ثم يأتى التشابك من خلال مسارب متعددة، فقد يسترسل الراوى نفسُهُ فى قصص أخرى لا يُستبعَد أن تخالفَ أو تناقضَ ما سبق أن رواه، وقد تُشبهه فى المغزى وتختلف فى الشخصيات التى صنعت الخبر، أو العصر الذى تنتمى إليه. قبل التَّنُوخِىّ بقرن ونصف القرن تقريبًا ألَّف الجَاحظُ كتابه الشهير «البُخَلاَء»، وهو محكوم بعنوانه مثل «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» ومع هذا فإن الجاحظ لم يبذل جهدًا فى تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التى يعتنقها البخلاء.

وبصفة عامة، فإننا يمكن أن نتلمس الاعـتبارات التى يرجح أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهديًا حسه الفنى دون أن يقصد إلى ذلك قصدًا.

أول هذه الاعتـبارات: التدرج فى تنميـة الشكل الفنى من البساطة إلى التعـقيد، ومن الإيجاز إلى الإطالة والإشباع، ومن الغيـبى الدينى، إلى الواقعى الاجتماعى. يبدأ بالأدعية والأذكار فى مواطن الشِّدَّة التى تعرَّض لها الأنبياء، من آدم إلى محمد عليه السلام، ويغـادر الأنبياء وقصصهم إلى مَن يلوذ بهم من الأوليـاء والصالحين. كما يغـادر «المعجزة» إلى «الكرامة» ثم يمضى إلى المواجـهة بين ذوى السلطان ومن يدور فى فلكهم من الوزراء والعـمَّال، أو المواجـهة بين واحد مـن هؤلاء وشخصٍ مغمور دَفَعَتْ به الحوادثُ الـمُستجدَّة إلى براثنهم فنجّاه الله بموعظةٍ أو كلمةِ صِدْقٍ، ثم يتدرج إلى قصص اللصوص وقُطَّاع الطُرق وحيلِهم وما حاق بالناس من شرهم، وحين يبلغ الباب قبل الأخير -وقد عقـده لقصص المحبين والعُشَّاق- فإنه يكون قد بلغ أعلى درجات الـتركيب الفنى جـودة، كما يتـمكن من اتخاذ قـصة الحب هذه وسيلة إلى الغـوص فى حياة المجـتمع -بكل طبقاته تـقريبًا- والغوص إلى أعـماقٍ جديدة فى النفس الإنسانية لم يبلغها فى قصصه السابقة.

الاعتبـار الثانى: استـدرار المادة القصصـية بطريق التداعى، وقـد أشرنا إلى هذا الجـانب منذ قليل، فـعلى الرغم من توزيع مـادة الكتـاب فى أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون مـحددة -وهذا مـا لم يتحقق- فـإن التداعى داخل قـصص الباب الواحد قد لعب الدورَ الأساسىَّ فى ترتيب هـذه القصص، للأسباب التى أسلفنا، ونتيجـة لذلك فإن طابع «المسامرة» قـد غلب على الكتاب، وقد كـانت «المسامرة» التى يُفَضِّل القاضى التَّنُوخِىُّ أن يدعوَها «المذاكرة» مصدرًا رئيسياً لإمداده بالقصص فى مجلس أبيه، وقد ترددت هذه العبارة فى صـدر عدد من قصصه: «حدَّثنى أبى فى المذاكـرة، من لفظه وحفظه، ولم أكـتبـه فى الحال، وعلِق بحـفظى، والمعنى واحـد، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص»، بـل إنه ينص على هذه المذاكـرة فى عنوان كتابه الآخر: «نُشوار المحاضرة وأخبارُ المذاكرة».

ويمكن أن نحصر أنواع التداعى التى استخدمت فى ترتيب القصص فى الآتى:

أ- تَدَاعٍ مصدره شخصية «البطل» الذى يدور الخبر من حوله، مثل ذكره لأبيات دَلَّسَ بها الشاعر البحترى على «المعتز» فى سجنه قبل أن يصير خليفة (القسم الثانى: الفصل الثانى -القصة رقم ١٧) فتستدعى أبيات البحترى إلى خاطره أبياتًا أخرى قالها لشخص آخر وقع فى شدة، وذلك هو أبو سعيد الثغرى الذى سجنه المتوكل وصادر أمواله، فتألم له البحترى فى أبيات، كان وصولها إلى أسماع المتوكل سببًا فى إطلاق الثغرى من حبسه، وتوليته، ثم يقول فى الخبر التالى: «ومن محاسن شعر البحترى، الذى يتعلق بهذا الباب، وإن كان تعلقًا ضعيفًا، إلا أن الشىء بالشىء يذكر ولا سيما إذا قاربه»، ثم يأتى بأبيات للبحترى قالها مهنئًا إبراهيم بن المدبر حين فرَّج الله شدَّته، بعد أن أسقط فى أسر الزنج، وتمكن من نقب السجن والهرب.. إلخ، ونستطيع أن نقول: إن التداعى الذى يرجع إلى شخصية البطل لم يستخدم كثيرًا، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد، والحجاج، والبرامكة، والمنصور، والمأمون -على كثرتها النسبية- ليست متتالية، وأحيانًا ليست متقاربة إذا احتكم فيها إلى اعتبارات أخرى.

بـ- تداعٍ مصدره شخصية الراوى، أو الكتاب الذى ينقل عنه، وبالنسبة لشخصية الراوية فإنه نقل كثيرًا عن الصولى، كما تتكرر عنده سلسلة الرواية عن أبى قيراط وولديه. وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصًا متتابعة، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع، ومِنْ ثَمَّ يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره فى إطار معنوى واحد. وقد حدث هذا كثيرًا عند النقل عن الجَهشيَارِى(١)، وجدير بالذكر أن المصدر واحد، وهو كتاب الوزراء والكتَّاب، والموضوع واحد أيضًا، حسْب ما شَرَطَ على نفسه فى توزيع الأبواب، ولكن البطل مختلفٌ فى كل قصة، بل إن الموضوع يختلف كثيرًا إذا دققنا فى مغزاه وتركيبه، ويحدث الأمر نفسه عند النقل عن المدائنى، ولا نستطرد فى هذا الجانب الواضح، أما تداعيات الراوية أو السلسلة من الرواة فإنها أقل تأثيرًا، بالإضافة إلى

(١) محمد بن عَبْدُوس الجَهْشيارى صاحب كتاب «الوزراء والكُتّاب» نشر بتحقيق مصطفى السقا وآخران.

أبى قيراط، يمكن أن نجد قصصًا متتابعة من رواية: يحيى بن فهد الأزدى، وسعد ابن محمد الأزدى، الشاعر المعروف بالوحيد، وعبد الله بن محمد الصَّرَوِى، كما تكررت سلسلة: على بن أبى الطيب، عن ابن الجَرَاح، عن ابن أبى الدنيا، متقاربة ومتباعدة.

جـ- تداعٍ مصدره المغزى الدقيق للحادثة، أو المعنى اللغوى لها، من النوع الأول: ما حلم به الإسكندر الأكبر، إذ رأى فى منامه كأنه صارع دَارًا -ملك الفُرس- فصرعه دارا، فكَرَبَهُ ذلك وزاد همَّه، ولكن عبارة الرؤيا أشارت إلى أن الإسكندر هو الذى سَيَظْفَرُ بخَصمه، وقد قال له بعض فلاسفته معللاً: «أبشر أيها الملك بالغَلَبَةِ والنصر، فإنك تغلب دَارًا على الأرض؛ لأنك كُنْتَ تِليها لما صَرَعَك»!!

ويستدعى هذا رؤيا رآها عبد الله بن الزبير إبّانَ صراعه مع عبدَ الملك ابن مروان، فصرع عبدَ الملك، وسمَّرَه فى الأرض بأربعة أوتاد. وقد فسَّر ابنُ سيرينَ هذه الرؤيا بانتصارِ عبد الملك، للأسباب ذاتها التى أعلنها الفيلسوف اليونانى، ويزيد تفصيلاً أن الأوتاد الأربعة هم أولادُ عبد الملك الأربعة الذين يرثون مُلْكه من بعده.

أما التداعى اللغوى فنجده ماثلاً فى حادثة الخلع الثانى للخليفة المُقْتَدِر، يرويها فتذكره بِخَلْع الأمين، مع فارق فى الدوافع والنتائج، يستدعى منه أن يعود إلى حادثة الخلع الأول للمقتدر.

الاعتبار الثالث: الاهتمامُ بتوثيق المادة المَرْوِيَة، سواء أكانت تاريخًا مرويّاً أبطاله أشخاص معروفون، أو كانت مجرد أخبار عن نكِرَات من عامة الناس، أو كانت حكاياتٍ وضُعت لسبب أو لآخر، كالوعظ والتعليم، وظلت واضحة الاختراع والوضع برغم ذلك.

لقد حرص القاضى التَّنُوخِىّ على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة إليه، ومن هنا كثر ترديد كلمات: حدَّثنى، أخبرنى، حدَّثنا، أخبرنا، إذا ما كانت

المُشَافَهَةُ والسَّماعُ طريقةَ التوصيل، وكلمات: «وجدتُ بخط القاضى أبى جعفر»، «وقد ذكر محمد بن داود فى كتابه المسمى كتاب الوزراء»، وما إلى ذلك من عبارات تؤكد صلته المباشرة بالمصدر الذى نقل عنه. وسنعود إلى هذه النقطة بشىء من التفصيل حين نناقش مصادر المؤلف.

الاعتبار الرابع: أن المؤلف التزم بحدود العُنوان الذى اختاره لكتابه، ومع معرفتنا بتكوينه الثقافى الذى تغلب عليه طبيعةُ الفَقِيه، ونشاطه العملى الذى لابد أن يكون قد اصْطَبَغَ بِصِبْغَة القاضى، فإنه لم يحتكم إلى فقهه أو قضائه فى انتقاء مختاراته من الأخبار والقصص والحكايات الشعبية، لقد كان يُخفى حِسّاً فنيا رَحْبًا، يَهَشُّ لروعة المفاجأة ويستجيب لمواطن المُفارقة، ويتجاوب مع الفرح بالحياة، سواء اتفق هذا مع جد الحياة، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه، وربما دلَّت الأبيات القلائل التى اقتبسناها له على شىء من ذلك، ومن الواضح أن قَبُوله منادمةَ مشاهير عصره، وبخاصة عَضُدُ الدولة، وقبولَ أن يكون شاهدًا لما فى هذه المجالس من مخالفة ما ينبغى الْتزامُهُ، حتى وإن لم يُشارك فى الفِعْل، يدل على هذا التسامح السلوكى، ولابد أنه كان يستجيب بطبعه إلى هذه الحياة، وقد ذكر فى «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة» قصةَ صاحب الشُرطة الذى رفض أن يكون نديمًا للخليفة، لأن هذا يناقض طَبْعَهُ وانضباطَ مهنته، وبعد جَفْوَةٍ قصيرة، قَبِلَ منه الخليفةُ هذا التفسير، بعبارة أخرى: لو أن القاضى التَّنُوخِيَّ لا يملك رغبةً دَفِينَةً فى تَذَوُّقِ مباهج الحياة ومُشاهدة مسرَّاتِها، ما استطاع أحدٌ إكراهَهُ على ذلك.

هذه صورة شديدةُ العمومية للكتاب، تحتاج إلى أن نعود إلى تأمل نواحيها بشىء من التفصيل، من خلال علاقة القاضى التَّنُوخِيّ بموضوع «الفَرَجُ بعد الشِّدَّة».

●●●